الحدود بين الأرثوذكسية والبدعة
عند القديس غريغوريوس بالاماس

الأستاذ جورج مانتزاريذس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في الأحد الأول من الصوم الكبير، تحتفل الكنيسة بانتصار الأرثوذكسية على البدع. الحدث التاريخي المحدد وأساس ونقطة انطلاق هذا الاحتفال كان انتصار الكنيسة على محاربي الأيقونات الذين أعلنوا أن استخدام الأيقونات ضد المسيحية. ما كانوا ليقبلوا تكريم أيقونة المسيح ولا الإكرام الممنوح للأيقونات الأخرى أو ذخائر القديسين. لم يكن موقفهم هذا سطحيًا، بل جاء من رفض أكثر عمقًا لتصوير المسيح، ما أدى في النهاية إلى إنكار تجسده ووجوده في العالم كإنسان حقيقي. الطريقة التي انتهى بها الصراع على الأيقونات تظهر طبيعة هذا الصراع الهرطوقية. لقد كان حقاً بدعة.

الهرطقة ليست رأيًا لاهوتيًا خاطئًا. كما أنها ليست سوء تفسير لبعض النقاط في الكتاب المقدس أو في تقليد الكنيسة. كما يشير أصل الكلمة، أنها اختيار جزء معين من الحقيقة اللاهوتية وجعلها مطلقة [تأتي كلمة "هرطقة" من الكلمة اليونانية "لرفع" أو بالامتداد "للاختيار"]. بمعنى آخر، الهرطقة تقسم الحقيقة إلى أجزاء وتختار جزءًا معينًا منها، وتجعله مطلقًا، وبهذه الطريقة تشوّه الحقيقة بأكملها وتحتقرها. عندما علم أريوس، على سبيل المثال، أن المسيح كان إنسانًا كاملاً، لم يكن يكذب. كان يقول الحقيقة. لكنه لم يكن يقول الحقيقة كاملة، بل جزءاً منها فقط. لقد أغفل أن يقول أن المسيح كان أيضًا إلهًا كاملاً. وبهذه الطريقة شوّه وأهان الحقيقة الكاملة عن المسيح. ولم يعترف بالاتحاد بين الطبيعة الإلهية والبشرية في شخص المسيح، الذي هو أساس اتحادنا بالله، أي اتحادنا وتمجيدنا. لقد قاوم أسس المسيحية وأنتج بدعة.

لذا فإن جوهر البدعة، في ما يتعلق بالمسيحية، يكمن بالتحديد في أي مناهضة للاتحاد بين الله والبشر، وهو اتحاد يقوم على شخص المسيح باعتباره إلهًا وإنسانًا. بعبارة أخرى، البدعة تشكك بقدرتنا على الخلاص، أي تمجيدنا. إن تمجيدنا أو تألهنا هو الغرض من خلقنا. لقد خلقنا على "صورة الله ومثاله". نحن خليقة الله وعلينا أن نكون مثله: آلهة. بالطبع، ليس من حيث الجوهر، بل بالنعمة كما تصوغها اللغة اللاهوتية. لكن هذا أصبح مستحيلاً بعد تمردنا على الله وخضوعنا للخطيئة. إن العودة إلى الشَبَه هي تمجيدنا، خلاصنا.

إن مجمل التاريخ المقدس للعهد القديم، والذي يُتوّج بتجسد الله في المسيح، يكشف عن عمل العناية الإلهية من أجل خلاص العالم. والكنيسة هي البيئة الروحية التي يبدأ فيها خلاصنا.

كتحدٍّ لهذا الخلاص، قدمت الهرطقات نفسها في تاريخ الكنيسة على مستويين: مستوى الخلاص الذي منحنا إياه الله، كما كان الحال مع الدوسيتية، الآريوسية، النسطورية، التوحيد ، إلخ ؛ ب) على مستوى الطريقة التي نتلقّى بها هذا الخلاص ونفهمه، كما في مذهب البرلعامية الذي عارضته الكنيسة، بشكل رئيسي من خلال القديس غريغوريوس بالاماس.

البدع القديمة هاجمت الخلاص بالدرجة الأولى، أي أساس منح الله الخلاص للبشرية. إذا كان المسيح ليس كائنًا بشريًا حقيقيًا، فلم يكن لديه جسد بشري حقيقي، بل مجرد مظهر جسد، كما يزعم أقدم الهراطقة، أي الدوسيتيون الذين عارضهم القديس يوحنا الإنجيلي؛ لو كان مجرد إنسان، كما ادعى الأريوسيون فيما بعد؛ أو الله فقط كما علم أتباع الطبيعة الواحدة؛ أو إذا كان إلهًا وإنسانًا، ولكن بطبيعتين منفصلتين لم تتحدا في شخص واحد، كما ادّعى النساطرة؛ أو حتى لو كان إلهًا كاملاً ولكنه ليس إنسانًا كاملاً كما أعلن الأبوليناريون، فلن تكتمل مهمة خلاصنا إلى الآخر.

كما يعلمنا الكتاب المقدس وآباء الكنيسة، نحن نخلص عندما نُقبَل في الله، وعندما يعاد وصلنا من جديد بمصدر حياتنا واتحادنا به. كل الهرطقات القديمة تنكر، جزئيًا أو كليًا، إيمان الكنيسة وتعاليمها. وبهذه الطريقة تحدت خبرة أعضائها التي اختبروها منذ البداية: أن الشركة مع المسيح، والاشتراك في جسده ودمه هما في الواقع شركة مع الله، واشتراك في الحياة الإلهية.

كان اضطهاد الأيقونات نوعًا من التلخيص والإيجاز للبدع القديمة. استمرت فترة اضطهاد الأيقونات لأكثر من قرن (٧٢٦-٨٤٣) وشهدت هذه المرة عودة مجموعة متنوعة للكثير من البدع السابقة. لهذا السبب، في عيد الأرثوذكسية، هناك ذكر لإدانة جميع البدع وإعلان إيمان الكنيسة الذي لا يتزعزع على مدار تقليدها المستمر: "كما عاينت الأنبياء كما علّمت الرسل كما تسلّمت الكنيسة كما اعتقدت المعلمون كما اتفقت آراء المسكونة معاً... هكذا نعتقد هكذا نتكلّم هكذا نكرز" (سينوذيكون الأرثوذكسية).

كانت الحرب على الأيقونات شكلاً من أشكال الإيديولوجيا الدينية التي ألقت بظلالٍ من الشك على حقيقة تجسد الله، ورفضتها في النهاية، فيما هي شرط أساسي لتجديد العالم وتمجيدنا. إذا كان المسيح لا يمكن تصويره، فهذا يعني أنه لم يكن إنسانًا حقيقيًا. تعلن أيقونة المسيح وتؤكّد على حقيقة التجسد الإلهي. إنها تبرز حضور الله الذي جاء إلى العالم ليخلصنا.

جميع البدع القديمة التي ظهرت في الألفية الأولى بعد المسيح عالجتها المجامع المسكونية السبعة. إن انتصار الأرثوذكسية، الذي تحتفل به الكنيسة في الأحد الأول من الصوم الكبير يُقدَّم على أنه انتصار على هذه البدع التي زرعت الشك بخلاصنا الممنوح لنا من الله.

الأحد الثاني من الصوم الكبير هو امتداد ليوم أحد الأرثوذكسية. في هذا الأحد، نحتفل بالانتصار على نوع آخر من البدع. إنه النوع الذي يشكك بخلاصنا من الدرجة الثانية، اي في الطريقة التي نتلقّى بها الخلاص ونقبله. كان بطل الكنيسة الرئيسي في مكافحة هذه البدعة القديس غريغوريوس بالاماس، رئيس أساقفة تسالونيكي.

ولد القديس غريغوريوس بالاماس عام ١٢٩٦ من أبوين متدينَين وميسورَين. في سن السابعة، فقد غريغوريوس والده وتولى الإمبراطور نفسه مسؤولية تعليمه، مما يعني أنه كان متجهًا إلى منصب عام رفيع. في نفس الوقت، في حضن عائلته، تعرّف على حياة النسك وتعلّم صلاة يسوع من ثيوليبتوس الذي كان راهباً أثوسياً صار لاحقًا مطران فيلادلفيا. على الرغم من أن الإمبراطور كان يهدف إلى إعداده للمناصب العامة الرفيعة، إلا أنه هو نفسه فضّل الحياة الرهبانية.

في خريف عام ١٣١٦، في سن العشرين، غادر إلى الجبل المقدس مع شقيقيه الأصغرين مكاريوس وثيودوسيوس. خلال السنوات الثلاث الأولى من إقامته هناك، كان تحت الإرشاد الروحي للناسك نيقوديموس، على حدود أراضي دير فاتوباذي المقدس. بعد وفاة نيقوديموس، انتقل إلى دير اللافرا الكبير وهو دير شركة، ومن ثم انسحب إلى منسَك.

في عام ١٣٢٥ ، أجبرت غارات الأتراك بالاماس والآثوسيين الآخرين على مغادرة الجبل المقدس. ذهب إلى منسك في إسقيط فيريا، حيث عاش حوالي خمس سنوات في النسك الصارم. في عام ١٣٣١، أجبره الصرب على مغادرة منطقة فيريا والعودة إلى الجبل المقدس، حيث تابع حياته كناسك في قلاية القديس سابا. هنا تعرّف على آراء برلعام، عالم اللاهوت والفيلسوف الذي من كالابريا، في جنوب إيطاليا.

كان برلعام أرثوذكسيًا يقبل كل عقائد الكنيسة كما صاغتها المجامع المسكونية السبعة. لذلك هو لم يُظهِر آراء هرطوقية في المستوى الأول من المستويين اللذين ذكرناهما، ولكن في المستوى الثاني: حول كيف نقبل خلاص الله ونتسلّمه. لم يقل برلعام أن المسيح والروح القدس مخلوقان، كما ادعى الأريوسيون ومحاربو الروح القدس، لكنه ادعى أن قوة الله، أي نعمته، التي بها نخلص مخلوقة. هذا يعني أننا لا نستطيع الدخول في علاقة شخصية مباشرة مع الله، ولسنا متحدين به بل مع نوع من الكينونة المخلوقة. في ما يتعلق بخلاصنا، فإن هذا الادعاء يعادل ما شدد عليه الأريوسيون ومضطهدو الروح القدس.

إن خلاصنا هو حقيقة وجودية. بعبارة أخرى، إنه حقيقة تغلّف وجودنا كله وتتجسد من خلال اتحادنا المباشر والشخصي بالله واشتراكنا به. إنه نقل الحياة الإلهية التي فقدناها من خلال ارتدادنا عنه. نحن لا نخلص بتعلم حقائق معينة أو باكتساب معرفة لاهوتية عن الله. والله لا يخلّصنا بإخبارنا بمعلومات

عن نفسه، بل بالمجيء إلينا كشخص، مع بقائه الإله الذي هو. هو يخلصنا بحياته وموته، بالصليب وقيامته.

يلخص القديس بولس كل سر عناية الله بخلاصنا عندما يقول: "إن السر الذي تنبع منه التقوى الحقيقية عظيم. ظهر الله في الجسد ، وتبرر بالروح ، ورآه الملائكة ، وتم التبشير به بين الأمم ، وآمن به في العالم ، وتم رفعه بمجد". يُختبَر هذا السرّ في عالم الكنيسة الروحي. هذا السرّ مطابق في جوهره لسرّ الكنيسة. لهذا سمّى القديس غريغوريوس بالاماس الكنيسة، التي هي تأسيسنا في الاتحاد والشركة مع الله، "شركة التألّه".